منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2034) السنة الثامنة -السبت (5) شباط 2011

شيخ إمام
أغنية الاحتجاج

شيـــخ إمـــــام...

ولد إمام محمد أحمد عيسى في ٢ تموز / يوليو ١٩١٨ في قرية أبو النمرس بمحافظة الجيزة، لأسرة فقيرة، و كان أول من يعيش لها من الذكور حيث مات منهم قبله سبعة، ثم تلاه أخ وأخت.
أصيب في السنة الأولى من عمره بالرمد الحبيبي، وفقد بصره بسبب الجهل واستعمال الوصفات البلدية في علاج عينه، فقضى إمام طفولته في حفظ القرآن الكريم، وكانت له ذاكرة قوية.

كان والده يحلم أن يكون ابنه شيخاً كبيراً، لكنه كان قاسياً في معاملته، أما والدته فكانت النبع الذى ارتوى منه إمام بالحنان في طفولته وعوضه فقد بصره، وكانت معايرة الأطفال لابنها بالعمى تدفعها للبكاء. كان إمام يندس في مواسم الأفراح والحج، وسط الحريم ليسمع غناءهن وأهازيجهم فنشأ صاحب أذن موسيقية من صغره.

عرف إمام طريقه للقاهرة بصحبة عمه، وفي إحدى تلك الرحلات عندما كان إمام في السابعة وصلى في مسجد فاضل باشا بدرب الجماميز بالسيدة زينب، وأخذ يستمع لسورة الكهف مأخوذا بأداء المقرئ، ثم ذهل عندما عرف أنه أعمى مثله، وزاد ذهوله عندما عرف أنه مقرئ الإذاعة. وكان أن سلم عليه ذلك المقرئ محمد رفعت وكلمه ومدح نباهته وتنبأ له بمستقبل.

وفى عام ١٩٢٩، لم يكن إمام قد أكمل عامه الثاني عشر، اصطحبه والده للقاهرة للدراسة بالجمعية الشرعية السنية بحي الأزهر، وكان لدى الجمعية واعظ ومنشد يحييان المناسبات، وفى أحد الأفراح اختير الطفل إمام ضمن فرقة الإنشاد. التحق الشيخ إمام بالمركز الرئيسي للجمعية، وقضى بها ٤ سنوات وأتم حفظ القرآن الكريم، فاستحق لقب «شيخ» رغم صغر سنه، وكان يقيم بها إقامة دائمة، ولازم إمام حب الاستماع للشيخ محمد رفعت، وكان الاستماع للراديو من ممنوعات الجمعية لكونه بدعة، فما بالك لو كان يستمع للقرآن، فقررت الجمعية فصله بالإجماع.

عندما سمع أبوه بما حدث لابنه من فصل من الجمعية بحث عنه فوجده يقضى نهاره في الحسين وليله في الأزهر حيث كان ينام، فأهانه وضربه وحذره من العودة لقريته مرة أخرى نظراً للجريمة التى اقترفها بتسببه في فصله من الجمعية، وبعدها مباشرة توفيت أمه التى كانت أعز ما لديه في الدنيا، ولم يتمكن من تشييعها لمثواها الأخير، وبالفعل لم يعد لقريته إلا حين مات أبوه.

مسيرته الموسيقيّة

وفى إحدى زياراته لحى الغورية قابل مجموعة من أهالي قريته فأقام معهم وامتهن الإنشاد وتلاوة القرآن الكريم، وكسائر أحداث حياته التى شكلتها الصدفة التقى الشيخ إمام بالشيخ درويش الحريري أحد كبار علماء الموسيقى، وأعجب به الشيخ الحريري بمجرد سماع صوته، وتولى تعليمه الموسيقى.

اصطحب الشيخ الحريري تلميذه في جلسات الإنشاد والطرب، فذاع صيته وتعرف على كبار المطربين والمقرئين، أمثال زكريًا أحمد والشيخ محمود صبح، وبدأت حياة الشيخ في التحسن.

وفى منتصف الثلاثينيات كان الشيخ إمام قد تعرف على الشيخ زكريا أحمد عن طريق الشيخ درويش الحريري، فلزمه واستعان به الشيخ زكريا في حفظ الألحان الجديدة واكتشاف نقط الضعف بها، حيث كان زكريا أحمد ملولا، لا يحب الحفظ فاستمر معه إمام طويلا، وكان يحفظ ألحانه لأم كلثوم قبل أن تغنيها، وكان إمام يفاخر بهذا.

حتى إن ألحان زكريا أحمد لأم كلثوم بدأت

تتسرب للناس قبل أن تغنيها أم كلثوم، مثل «أهل الهوى» و «أنا في انتظارك» و «آه من لقاك في أول يوم» و «الأولة في الغرام»، فقرر الشيخ زكريا الاستغناء عن الشيخ إمام.

كان لهذه الواقعة أثر في تحويل دفة حياة الشيخ إمام مرة أخرى عندما قرر تعلم العزف على العود، وبالفعل تعلم على يد كامل الحمصاني، وبدأ الشيخ إمام يفكر في التلحين حتى إنه ألف كلمات ولحنها وبدأ يبتعد عن قراءة القرآن وتحول لمغن واستبدل ملابسه الأزهرية بملابس مدنية.

اللقاء بين الثنائي إمام ونجم

وفى عام ١٩٦٢، حدث اللقاء التاريخي بين الشيخ إمام عيسى وأحمد فؤاد نجم رفيق دربه، وتم التعارف بين نجم والشيخ إمام عن طريق زميل لابن عم نجم كان جاراً للشيخ إمام، فعرض على نجم الذهاب للشيخ إمام والتعرف عليه، وبالفعل ذهب نجم للقاء الشيخ إمام وأعجب كلاهما بالآخر.

وعندما سأل نجم إمام لماذا لم يلحن أجابه الشيخ إمام أنه لا يجد كلاما يشجعه، وبدأت الثنائية بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وتأسست شركة دامت سنوات طويلة.

ذاع صيت الثنائي نجم وإمام والتف حولهما المثقفين والصحفيين خاصة بعد أغنية: «أنا أتوب عن حبك أنا؟»، ثم «عشق الصبايا»، و«ساعة العصاري»، واتسعت الشركة فضمت عازف الإيقاع محمد على، فكان ثالث ثلاثة كونوا فرقة للتأليف والتلحين والغناء ساهم فيها العديد لم تقتصر على أشعار نجم فغنت لمجموعة من شعراء عصرها أمثال: فؤاد قاعود، ونجيب سرور، وتوفيق زياد، وزين العابدين فؤاد، وآدم فتحى، وفرغلى العربى، وغيرهم.

نكسة يونيو والتحول النوعى في أعمال الشيخ إمام

كغيره من المصريين زلزلت هزيمة يونيو ١٩٦٧ إمام وسادت نغمة السخرية والانهزامية بعض أغانيها مثل: «الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا - يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار»، و«يعيش أهل بلدى وبينهم مفيش - تعارف يخلى التحالف يعيش»، و«وقعت م الجوع ومن الراحة - البقرة السمرا النطاحة»، وسرعان ما اختفت هذه النغمة الساخرة الانهزامية وحلت مكانها نغمة أخرى مليئة بالصحوة والاعتزاز بمصر مثل «مصر يا امة يا بهية - يا ام طرحة وجلابية».

انتشرت قصائد نجم التى لحنها وغناها الشيخ إمام كالنار في الهشيم داخل وخارج مصر، فكثر عليها الكلام واختلف حولها الناس بين مؤيدين ومعارضين، في البداية استوعبت الدولة الشيخ وفرقته وسمحت بتنظيم حفل في نقابة الصحفيين وفتحت لهم أبواب الإذاعة والتليفزيون.

لكن سرعان ما انقلب الحال بعد هجوم الشيخ إمام في أغانيه على الأحكام التى برئت المسئولون عن هزيمة ١٩٦٧، فتم القبض عليه هو ونجم ليحاكما بتهمة تعاطي الحشيش سنة ١٩٦٩ ولكن القاضي أطلق سراحهما، لكن الأمن ظل يلاحقهما ويسجل أغانيهم حتى حكم عليهما بالسجن المؤبد ليكون الشيخ أول سجين بسبب الغناء في تاريخ الثقافة العربية.

قضى الشيخ إمام ونجم الفترة من هزيمة يوليو حتى نصر أكتوبر يتنقلوا من سجن إلى آخر ومن معتقل إلى آخر ومن قضية إلى أخرى، حتى أفرج عنهم بعد اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات.

فى منتصف الثمانينيات تلقى الشيخ إمام دعوة من وزارة الثقافة الفرنسية لإحياء بعض الحفلات في فرنسا، فلاقت حفلاته إقبالاً جماهيرياً كبيراً، وبدأ في السفر في جولة بالدول العربية والأوروبية لإقامة حفلات غنائية لاقت كلها نجاحات عظيمة، وللأسف بدأت الخلافات في هذه الفترة تدب بين ثلاثى الفرقة الشيخ إمام ونجم ومحمد على عازف الإيقاع لم تنته إلا قبل وفاة الشيخ إمام بفترة قصيرة.

وفاته

وفى منتصف التسعينات آثر الشيخ إمام الذى جاوز السبعين العزلة والاعتكاف في حجرته المتواضعة بحي الغورية ولم يعد يظهر في الكثير من المناسبات كالسابق حتى رحل عن عالمنا في هدوء في يونيو من عام ١٩٩٥ تاركاً وراءه أعمالاً فنية أشك أن يجود التاريخ بمثلها مرة أخرى.

أعمـــــاله :

رجعوا التلامذة- بقرة حاحا- الاولة بلدي- رسالة إلى الحدود- كلام عن الكلام - الخواجة الأمريكاني- اليويو- قيدوا شمعة- المرجيحة- صبر أيوب- شال الهوى

- ميكي- الجدع جدع- غنوة لفلسطين- يعيش أهل بلدي- جيفارا مات- برولوج - الربيع- كلب الست- جوازةأبوك- السقا مات- ساتياجراها- فاليري جيسكار ديستان

-ع المحطة- الشربة العجيبة- الفاعل- شرم برم- مناعة أرزاق- صبر أيوب - يعيش أهل بلدي- عبد المنعم رياض- الشركسى- يا مرحرح- سلام مربع للطلاب

- تحية لأبطال الثانوية- فوازير- لا صوت يعلو فوق صوت - حلا ويلا- الحاوي

- ورقة من ملف القضية- جيفارا مات- نيكسون جاء- نيكسون- الشيخ إمام - محكمة التوبة- فى الليل- بهية- القضية- السندباد- الطنبور- وعد الحر- سلام للأرض

- الغربة- بكائية يناير- أهيم شوأقا- يا عرب- كلمتين- الكلمة- بتكات- وهبت عمري

-أبوح - الأديب- اتجمعوا العشاق- شيد قصورك- مرمر زماني- عطشان- أنا الشعب

- ماشي - إصحي يا مصر- إزّاي أتوب - أتوب عن حبك- إذا الشمس غرقت

- هما مين و احنا مين- يا ولدي- البحر بيضحك ليه- في ذكرى الميلاد العشرين

- الشيخ عاشور- أهلا بالحب- حنتوب- يا حبايبنا- عدى الهوى-هوشي مينه

-ابن البلد - على الربابة- قاوم بالصدر العاري- لاح بدر السلم- يا اسكندرية

-عشق الصبايا- بلدي و حبيبتي- بيرم- الفول و اللحمة- باحلم

الشيخ إمام مؤسس اغنية الاحتجاج الاجتماعي

في السابع من حزيران يونيو سنة ١٩٩٥، رحل عن عالمنا الشيخ إمام عيسى بعد أن لعب أكبر الأثر في تشكيل وجدان الآلاف من شباب الحركة الوطنية المصرية، الذين دخلوا الجامعة في سبعينيات القرن الماضي، وذلك عبر اغانيه الاحتجاجية والثورية تلك الاغنيات التي اعتبره الكثيرون مؤسسها الحقيقي بعد ان شهدت بعض ارهاصاتها مع سيد درويش. لقد صادرت ثورة يوليو الصراع الطبقي بدعوى « تحالف قوي الشعب العامل» الذي اعتبرته صيغتها السياسية الوحيدة، ولكن تحت ستار تلك الصيغة حدثت هزيمة يونيو، واختفت الديموقراطية وظهرت اشكال عديدة من الفساد السياسي والاجتماعي، وهو ما مهد الطريق امام الشيخ إمام ليؤسس لاغنية الاحتجاج الاجتماعي. ولد الشيخ إمام في قرية أبوالنمرس بمحافظة الجيزة سنة ١٩١٨، وأصيب بالرمد وكف بصره نتيجة علاجه بالوصفات البلدية التي ذهبت ببصر طه حسين قبله بربع قرن. وراح الشيخ إمام يتردد علي الكتاب ويحفظ القرآن الكريم، وهجر اسرته الفقيرة والتي ضاقت به فعاش حياة التشرد ينام الليل في كنف سيدنا الحسين ونهارا يقرأ القرآن والموشحات في المآتم والمناسبات الخاصة، فإن لم يجد فإنه ينال طعامه من خلال بعض ذوي الإحسان أو الذين ينذرون نذورا لمجاوري الحسين.

الشيخ الحريري

وفي منتصف الثلاثينيات أعجب به الشيخ درويش الحريري فقدمه إلى الشيخ زكريا أحمد ومحمود صبح، ومن خلال هؤلاء يعرف الطريق إلى تعلم فنون الغناء ومقاماته وفنون العزف علي العود. ونظرا لذاكرته الحديدية فقد استعان به الشيخ زكريا أحمد في حفظ الألحان التي تطلبها منه أم كلثوم، حتي عرف أن بعض تلك الألحان مثل «أهل الهوى يا ليل» و«أنا في انتظارك» تتسرب عن طريقه قبل إذاعتها فطرده، وعاد الشيخ إمام إلى حياة التشرد مرة ثانية، غير أنه قد ألم بفنون الغناء والطرب وكون من العلاقات ما مكنه من يحصل من الرزق ما يقيم أوده ويسمح له باستئجار غرفة متواضعة في حارة «خوش قدم ـ سلطان مملوكي من القرن ١٥ ـ أو حوش آدم» بحي الغورية. وسارت الحياة بالشيخ إمام عيسى يقرأ القرآن في المآتم ويغني في المناسبات الدينية أو الخاصة الموشحات وأغنيات سيد درويش وزكريا أحمد وغيرها طيلة عقدي الخمسينيات والستينيات.

وفي سنة ١٩٦٢ وعن طريق «سعد الموجي» وهو أحد المثقفين إلياريين الكبار، تعرف الشيخ إمام إلى الشاعر الكبير، أحمد فؤاد نجم، الذي كان خارجا لتوه من السجن بعد أن كتب في الزجل «صور من السجن والحياة»، وهنا غنى الشيخ إمام أول أغنية من ألحانه وكلمات أحمد فؤاد نجم، «أنا أتوب عن حبك أنا ورغم أن الشيخ إمام كان على مشارف الخمسين من عمره، فإنه اقترب من الفكر اليساري عن طريق العديد من مثقفي اليسار الذين خرجوا من معتقلات عبدالناصر في منتصف الستينيات.

ورغم ذلك وفي منتصف الستينيات عرف الشيخ إمام طريقه إلى الإذاعة، حيث قدمه الكاتب الراحل رجاء النقاش في برنامج «نصف ساعة مع ألحان الشيخ إمام» راح الرجل يقدم فيه بعض ألحانه الاجتماعية والساخرة.

حتى وقعت الواقعة وحدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فوجئ الناس بالشيخ إمام يغني «الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا يا محلا رجعة ضباطنا من خط النار/ يا أرض مصر المحمية بالحرامية الفول كتير والطعمية والبر عمار»، وكانت هذه الأغنيات تتجاوب بشدة مع المظاهرات الطلابية العارمة التي اجتاحت البلاد رفضا لأحكام الطيران الهزيلة التي لم تشف غليل الشباب الذي فجعته الهزيمة، ثم راح يغني «ناح النواح والنواحة على بقرة حاحا النطاحة/والبقرة حلوب، تحلب قنطار/ لكن مسلوب من أهل الدار».. وكتعبير عن اقترابه من فكر اليسار، غنى في مواجهة صيغة تحالف قوي الشعب العامل «يعيش أهل بلدي وبينهم ما فيش/تعارف يخلي التحالف يعيش/تعيش كل طايفة من التانية خايفة وتنزل ستاير باير وشيش/ لكن في الموالد يا شعب يا خالد بنتلم صحبة ونهتف يعيش/يعيش أهل بلدي». وهكذا عرف الشيخ إمام واحمد فؤاد نجم طريقهما إلى السجون والمعتقلات، ولم يخرجا منها إلا بعد موت عبدالناصر مع الانفراجة الديمقراطية التي حاول السادات أن يؤكد بها اختلافه عن سلفه الكبير.

واستمرت أغاني الشيخ إمام تتجاوب مع الأماني الوطنية لتحرير الأرض. فهو يغني لعبدالودود المجند الصعيدي الرابض ع الحدود «عجولك وأنت خابر كل الجضية عاد/ولسة دم خيك ما شرباش التراب/حسك عينك تزحزح يدك عن الزناد..وان كنت واد أبوك/تجبلي تار أخوك/والأهل يبلغوك جميعا السلام». كما غنى في نفس الوقت لأيقونة الثورة في العالم « جيفارا مات...» وفي مطلع السبعينيات عرف الشيخ إمام طريقه إلى تجمعات الطلاب بالجامعة فراح يغني لهم «رجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد تاني/يامصر انتي اللي باقية وانتي قطف الاماني» ويغني «صباح الخير على الورد اللي فتح في جناين مصر/صباح العندليب يشدي بالحان السبوع يامصر/ صباح الداية واللفة ورش الملح في الزفة/ صباح يطلع باعلامنا من الجامعة لباب النصر» وهي كلها أغاني تمتلئ بالأمل والتفاؤل والحلم بمستقبل واعد. وجاءت أجمل تلك الأغاني الثرية بالتفاؤل والأمل «بهية» وتقول «مصر يا أمه يا بهية يام طرحة وجلابية/الزمن شاب وانتي شابة هو رايح وأنت جاية/جاية فوق الصعب ماشية فات عليكي ليل ومية/ واحتمالك هو هو /وابتسامتك هي هي /تضحكي للصبح يصبح بعد ليلة ومغربية/تطلع الشمس تلاقيكي معجبانية وصبية يا بهية».

وقد ساهم في ذيوع اسم وأغاني الشيخ إمام رغم معارضته للنظام ومنعه من الإعلام الرسمي، ظهور جهاز التسجيل (الكاسيت) رخيص الثمن، سهل الاستعمال والنقل من مكان لآخر.

وعاد الشيخ إمام إلى ارتياد المعتقلات لمدد قصيرة أو طويلة حسب الظروف، فراحت أغانيه تمتلئ بالتحريض والغضب، «شيد قصورك ع المزارع/ من كدنا وعرق أيدينا/الخمارات جنب المصانع والسجن مطرح الجنينة/وأطلق كلابك في الشوارع واقفل زنازينك علينا» وعندما منع من السفر غنى: «ممنوع من السفر/ممنوع من الكلام/ممنوع من الغنا/ممنوع من الكلام/ممنوع من الاشتياق/ممنوع من الاستياء/وكل يوم ف حبك تزيد الممنوعات/وكل يوم باحبك اكتر من اللي فات». « يامصر قومي وشدي الحيل كل اللي تتمنيه عندي..يامصر لسة عددنا كتير/لاتجزعي من بأس الغير».

زعماء الطلاب

وترددت أسماء العديد من زعماء الطلاب في أغنيات الشيخ إمام. فقد غنى لأحمد عبدالله وأحمد بهاء شعبان وشوقي الكردي وجلال جميعي وسمير غطاس وأسامة برهان والراحلة سهام صبري، وغنى لزكي مراد المحامي النوبي الذي كان سكرتيرا للحزب الشيوعي المصري «يابلح ابريم ياسمارة سواك الهوى في العالي هويت/على طمي النيل ياسمارة/ وشربت عكار لما استكفيت/بس احلويت قوي ياسمارة/لفيت الشارع والحارة علي زي نقاوتك فين مالقيت»...

كما انفعل بالأحداث الجارية فغنى للبنان إبان محنة الحرب الأهلية وغنى لفلسطين وأشاد بقتلة وصفي التل مدبر أحداث أيلول الأسود، كما تغنى بهو تشي منه وبسقوط سايجون وغنى لسلفادور الليندي الذي قتلته المخابرات الأمريكية بعد أن دبرت له انقلابا في شيلي.

وتهكم على توجه السادات نحو الغرب فغني «شرفت يانيكسون بابا يا بتاع الوتر جيت/عملوا لك قيمة وسيمة سلاطين الفول والزيت» وغنى «فاليري جيسكار ديستان/والست بتاعه كمان/ حيجيبوا الديب من ديله/ويشبعوا كل جعان».

غنى الشيخ إمام عشرات الأغاني التي تمتلئ وعيا وتوهجا ووطنية، وكنا نصطحبه من حجرته في حوش قدم، ونقتحم أحد المدرجات الكبيرة بإحدى الكليات حتى لو رفض عميدها، ونجمع له بعض القروش القليلة كأجر متواضع، يقنع به ويقدر عليه الطلاب الفقراء. وكان الشيخ إمام بأغانيه المتوهجة عنصرا أساسيا أشعل مظاهرات الانتفاضة الشعبية (يناير ١٩٧٧)، حيث قدم للمحاكمة، ووضعت الدولة بعدها الحرس الجامعي لمنع غير طلاب المكان وأساتذته من الدخول. وهكذا حرم الطلاب من تلك الطاقة الخلاقة، وبعدها اقتصر غناء الشيخ إمام على بعض مقار الأحزاب وبعض الحفلات الخاصة. وفي منتصف الثمانينيات عرف طريقه إلى إحياء الكثير من الحفلات في الدول العربية والأجنبية وعاش في سعة نسبية من الرزق، بالمقارنة بمعاناته التاريخية، مكنته من الحصول على شقة ضيقة في نفس المكان ـ حوش قدم ـ واختلف مع رفيق دربه أحمد فؤاد نجم، ومات في هدوء. ونعاه جميع محبيه من كوادر وجماهير اليسار المصري، وأقاموا له بمسجد عمر مكرم مأتما يليق بفنان الشعب الذي انحاز للفقراء وأثرى وجداننا، وشغل الناس لربع قرن من الزمان، الشيخ إمام عيسى.

أشعار الغناء السري .. أناشيد على أفواه الرافضين

الشيخ إمام والأغنية الشعبية التحريضية

ان الصلة بين الحركة الاجتماعية والحركة الفنية صلة طبيعية وعميقة، وهذه الصلة محتم عليها أن تتحول الى قوانين تبدأ من الحالات الاجتماعية التي اختارتها، فهي تتطابق مع الوضع الحضاري الذي يعيشه مجتمع ما. ان الجاذبية في الفن، هي ببساطة اختيار النجاح، على أن عظمة هذه الجاذبية هي في مكرها وطريقة إخفائها لأسرارها، وهي تحتاج الى من يكتشفها، ان جميع الظاهرات الإنسانية مرتبطة بالحركة الاجتماعية في قليل أو كثير، والمسافات ما بين تطور المجتمع وحركة الفن هي القياس الحضاري للدرجة المعرفية التي يتحدد عندها المجتمع، ان النتاج الفني ظواهره وأعماقه ممسوك أساساً بمدى ارتباطه بالحصيلة النهائية للوضع الاجتماعي. ان حالة القوى المنتجة في الفن هي سيرة تفضي الى نوعية ارتباطاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ولا تدعو الى التضحية بالقياس الجمالي للفن وتكريس الاهتمام للهدف وحده.

عادل الهاشمي

الشيخ إمام كان يعيش في حي «الغورية» واحد من أشهر الأحياء الشعبية في القاهرة، يسكن في غرفة علوية متواضعة تماما لا تصلح لسكنى الآدميين، فهي مظلمة وضيقة ومتآكلة.. شقوق حوائطها تؤرخ صفا من السنين الطويلة الغابرة، والشيخ يغني على عوده ألحانه التي يتولى صياغتها بنفسه ويركبها على كلمات الشاعر أحمد فؤاد نجم، تلك التي تفصح عن حب لا يتزعزع لمصر وكرامتها وعزة شعبها وتضحياتها الجسيمة، ووقائع التاريخ تؤكد انه في عام ١٩٦٨-الفترة الناصرية - كانت أغانيه وألحانه تذاع من إذاعات القاهرة تحت عنوان (من ألحان الشيخ إمام)، لكنها بعد ذلك منعت ولقد ترنمت بألحانه حناجر معروفة مثل محمد رشدي وفايدة كامل وليلى نظمي وعدد من الأصوات الأخرى.

سنقول ان الفن في حقل الموسيقى والغناء مهمته الجوهرية ان يفرد لحضوره متعة فائقة، لكن هذه المتعة الجمالية تستوفي خصائصها الحقيقية عندما تعبر عن مضامين شعبية، اعني ان تلتقي مع هموم أوسع الجماهير، ان الفن الموسيقي والغنائي هو بدقة ذلك الذي يشغل وظيفة اجتماعية وهو مشارك في قيادة العمل الثوري، وهذه المشاركة تأخذ ملامحها الجادة من خلال الاحتفاء بالوقائع المثارة ومن خلال السياق المركزي للتطور التاريخي.. لا نريد هواة للموسيقى والغناء، بل نريد من ينحاز الى هذا الفن باعتباره صنفاً من المعارف الصلبة عن الواقع وأيضاً جهازاً اجتماعياً وثاباً وواعياً في خدمة الهدف العظيم وهو التغيير الشمولي، وتفوق الفن الغنائي والموسيقي مرهون بمعرفة اختيار الموقف والموقع معاً من خلال عملية التطور، إضافة الى تبلور أشكاله في التعبير والتقنية والأساليب، والنظرة الإيجابية الى الفن لا تشجب انتصاراته في مراحله السابقة، على وجه الخصوص تلك التي تحمل في طياته قيمة اجتماعية أصيلة.

ظاهرة الشيخ إمام في مصر هي إحدى الظواهر الفنية الملفتة للنظر التي تستدعي الوقوف عندها لإضاءة الكثير من ملامحها الجوهرية والاقتراب من دقائق حركتها، لقد اختار الشيخ إمام الغناء والتلحين منذ البداية باتجاه التعبير عن هموم الوطن والأمة، وكتب الأشعار الزجلية رفيقه الشاعر أحمد فؤاد نجم الذي ارتبط بعلاقة إنسانية متينة، لقد أجرى الشيخ إمام تعديلاً طفيفاً واجه به عملية تأويل المحتوى الثقافي لفن الغناء وعلى نظرة الفنان للفن.

هذا التعديل لا ينتسب بالضرورة إليه كلية، إنما هو من معطيات التجربة الثقافية الإنسانية الكبرى، هذا التعديل هو الفن في خدمة الفقراء، والفن هو قضية لا هواية والفن معركة وليس جامعاً للحاجات، ومهما يكن من أمر فهذه المتطلبات صعبة لكنها ضرورية، إذا ما علمنا أنها جاءت لتواجه واقع الفن في مصر، أن الجوع والعوز والحرمان وغياب الحرية وسيادة الطبقات الطفيلية وإهدار كرامة الوطن والمواطن والتضحية بالإنجازات الضخمة للجماهير وتشويه أصالة الوجدان العربي لمصر، كلها سلسلة من الجراحات لم ينبه إليها الفن الرسمي المدفوع بتحصيل الحاجات الذاتية ولم تشغله القضية، لكن الشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم يحملان هموم وطنهما وآلام شعبهما يغمسان حروف الرفض في عذوبة وصدق يستقطران أوجاع مصر، حيث يستحيل الأسلوب عندهما الى انحياز الشخصي الى العام والفردي الى الجماعي.

الشيخ إمام كان يعيش في حي «الغورية» واحد من أشهر الأحياء الشعبية في القاهرة، يسكن في غرفة علوية متواضعة تماماً لا تصلح لسكنى الآدميين، فهي مظلمة وضيقة ومتآكلة.. شقوق حوائطها تؤرخ صفاً من السنين الطويلة الغابرة، والشيخ يغني على عوده ألحانه التي يتولى صياغتها بنفسه ويركبها على كلمات الشاعر أحمد فؤاد نجم، تلك التي تفصح عن حب لا يتزعزع لمصر وكرامتها وعزة شعبها وتضحياتها الجسيمة، ووقائع التاريخ تؤكد انه في عام ١٩٦٨-الفترة الناصرية - كانت أغانيه وألحانه تذاع من إذاعات القاهرة تحت عنوان (من ألحان الشيخ إمام)، لكنها بعد ذلك منعت ولقد ترنمت بألحانه حناجر معروفة مثل محمد رشدي وفايدة كامل وليلى نظمي وعدد من الأصوات الأخرى.

ماذا يمثل الشيخ إمام

ابتداء.. فنحن نلمس في أغاني الشيخ إمام الروح الانتقالية الإيجابية، أنها تعطي الانطباع بأنها تعيد تنظيم الحس الشعبي وأعداده في مواجهة واقع متهرئ فاسد يرتع فيه اللصوص والأوغاد وأصحاب الأسماء سيئة الصيت، أن فنه لا يستعير أشكاله، بل هو يحرص على معاني الأشياء ينسق توليفي من الملامح والتكوينات والأساليب، وهو أيضاً تكرار إيجابي في خلق لغة المواجهة الانتقالية التي لا تساوم ولا تتخاذل، ان الشيخ إمام يغني لغة يحسها لواقع يومي بائس، لا تعتمد على تأويل خبرة فن الغناء بمادة غريبة عنه، انه توصل على نحو نابه الى أن يجعل نفسه جزءاً من واقع يشم رائحته القبيحة وهو مطالب ضمن ما يملكه ان يعامل هذا الواقع بأسلوب تفجيري، هو جامع لإحساس الناس المضطهدين المهانين الموجوعين من خلال حب يدعك في أعماقهم ذلك النبل غير المدنس.

هناك كرش خرافي يسرق اللقمات الطرية من الأفواه الجائعة، وأعني به الطبقة الطفيلية للنظام في مصر.. أن للوطن امتيازاً عظيماً هو انه يعيش من اجل أبنائه وان أبنائه يعيشون من اجله، ولكن عندما يتحول الوطن ال مزرعة يحرثها الأبناء ويحصدها اللصوص فتلك قضية حياة تصبح فيها الأبدان المهضومة قابلة للاحتراق والعدم، انه وحل يومي لابد من إزاحته بتلك الشرارات القاهرة من النشاط الشعبي العارم باتجاه تثبيت القيم واستعادة الحقوق وإنجاز الواجبات على نحو يقلل من قيمة الخسائر الإنسانية والفكرية لكل الناس المسلوبة إرادتهم.

يقول الشيخ إمام في إحدى أغانيه التي كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم:

خلق فاضية وعاملة قاضية
وهي موضع اتهام
هالهيافة في الكلام
قول يا عم الشيخ إمام
بينما شهدائنا لسه
دمهم أخضر ولسه
جرحهم احمر ولسه
بيوجعونا لو ننام

أن استنتاج القيمة الاجتماعية من هذه الأغنية هو الدعوة الى مواجهة الواقع وتغيير والانصراف الى كل من شأنه

أن أية ردة الى التراث في أغاني الشيخ إمام تنبثق أحياناً على نحو تلقائي يتحرك بطاقة الحس الجمالي لشخصية الفنان إمام، أن أغنية الشيخ إمام هي من نوع السطر اللحني المفرد، وهي عبارة عن شكل لحني يكون فيه النمو الموسيقي والايقاعي شيئاً واحداً. أن مقدار الاختلاف البين بين المحاكاة السطحية للتراث وبين ما يعاد اكتشافه، هو الإحساس بالحاضر، هذا الإحساس (الذي يقع عبئه على الشاعر أحمد فؤاد نجم) شبحي العميق المتدفق، الجار هو الذي يرسم في أغاني الشيخ إمام صورتها المميزة ويجعلها قريبة الى قلوب الكثيرين من الشباب والطلبة والعمال والفلاحين والغالبية العظمى من جماهير الشعب المصري.

توطيد الحشد البشري في مواجهة السراق، محنة الطن توفر كل الفيوض البدنية العصامية لادخارها والتمكن من استخدامها، أن الشيخ إمام بعد ذلك كله يضع مستقبل الوطن في فم الأغنية ويحذر ويحث وينذر ويكشف ويدين، ان الكلمة للمظلومين عليهم ان يقولوها.

ان أغاني الشيخ إمام لا تفصح عن ثراء لحني بقدر ما هي خطابات عاجلة او منشورات سرية لكل الذين يهمهم مستقبل مصر، وعادة فالخطابات العاجلة تكتب بطريقة تتناسب مع الموقف، لذلك فهي تتحاشى الزخرف اللحني والصياغات الجمالية الباذخة، إنما تتحدث مباشرة وعلى الفور، هكذا هي أغاني الشيخ إمام مزيجاً من التقاليد الموروثة ومن التجديدات، كما هي حال الألحان التي خلفها لنا أساطير الملحنين محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي وفريد الأطرش ورياض السنباطي ومحمود الشريف وهو ليس منتظر منه أن يواصل ما انتهى إليه الموسيقيون الكبار ولا يعمد الى صياغة جديدة لموسيقى المستقبل ولا يطوع اللغة الموسيقية الى ممرات جديدة من التعبير. إنما هو يفرغ لأداء الواجب الفني للواجب الذي يدعوه الى مهمة جليلة.. نعني إنقاذ الوطن وإنقاذ المكتسب وتحشيد الضائعين المجروحين والشقيانين والمحرومين، فهؤلاء لا يخاطبهم من خلال آلات الجاز والسكسفون والجيتار، إنما يخاطبهم من خلال تعبير يتخلق في آلة العود، فهي الأقرب لهم والأنفذ الى أعماقهم، وآلة العود لا تستطيع أن تستجيب الى التصويرات النغمية الثقيلة والصعبة، لذلك فأن أغاني الشيخ إمام تقدم لنا الأصالة بأجلى صورها الأصالة في البساطة والحذق والتركيب الموسيقي، غير أن هذه الأصالة التي يتميز بها فن الشيخ إمام وشعر أحمد فؤاد نجم لا يكون لهما معنى إلا من خلال قضية تمس أوسع دائرة من الجموع البشرية.. والشيخ إمام يخلق لنا فناً جديداً، إلا أن هذا الجديد ليس في الأشكال الموسيقية التي ابتدعها من سبقوه، إنما الجديد هو تلك المنشورات التي يتضمنها فنه المحرض.

ان الصياغة الفنية لهذه المنشورات لا تحتال على القواعد التقليدية الموسيقية، فالمد والقصر والانتقالات النغمية والوقفة الاسترسال والقفلة الفنية المحكمة البناء، كلها علامات لفن المنشورات الغنائية للشيخ غمام، وعليه لا يمكن اعتبار إنجازات الشيخ غمام قيمة تظل خارج التاريخ الحي للموسيقى العربية، لأنها ثرية بالهدف التاريخي على المستوى الوطني وثراؤها هذا يسمح لها بان تكون قاعدة ومنبعاً للإلهام، ان المناخ اللحني الذي تنشغل به الأغنية عند الشيخ إمام هو احتفاظه اليسير السهل البسيط بالعنصر الأممي وهذا يعني أن أغانيه يمكن لها أن تنتشر على نطاق واسع، ولذلك لا نستغرب أبداً إذا ما علمنا ان أغاني الشيخ إمام منتشرة على الصعيد القومي العربي، كذلك طبعت له أكثر من أسطوانة في باريس وعدد من العواصم الأوروبية، ان ألحانه ترمي الى النزوح الى ما هو تقليدي، لكنها لا ترتبط بماض توقف تأثيره.

أن أيةً ردة الى التراث في أغاني الشيخ إمام تنبثق أحياناً على نحو تلقائي يتحرك بطاقة الحس الجمالي لشخصية الفنان إمام، أن أغنية الشيخ إمام هي من نوع السطر اللحني المفرد، وهي عبارة عن شكل لحني يكون فيه النمو الموسيقي والإيقاعي شيئاً واحداً.

أن مقدار الاختلاف البين بين المحاكاة السطحية للتراث وبين ما يعاد اكتشافه، هو الإحساس بالحاضر، هذا الإحساس (الذي يقع عبئه على الشاعر أحمد فؤاد نجم) شبحي العميق المتدفق، الجار هو الذي يرسم في أغاني الشيخ إمام صورتها المميزة ويجعلها قريبة الى قلوب الكثيرين من الشباب والطلبة والعمال والفلاحين والغالبية العظمى من جماهير الشعب المصري.

أن صوت الشيخ إمام من الأصوات التي تدخر إحساساً زاخراً بالجاذبية، تلك التي تعطي للكلمة معناها وللحن ملامحه، أن صوته عميق ومؤثر وشبحي تستقطر نبراته أحزان مصر وأوجاعها في طريقة رجولية حية غنائه تأثرات حقيقية بأداء سيد درويش، وفي صوته أيضاً تكمن طاقة رجولية حية تنزع الى التعبير الأقصى عن الحالات الإنسانية.

أن طريقة أدائه جاءت لتغطي غناء يقلب ذلك الترتيب الثابت في الغناء التقليدي وليمزق السطوح الناعمة التي تتغلف بها أغنية- اليوم وهذا يكشف أيضاً عن نبرات التحديد والتحريض، ولأن الأغنية عنده ولادة ترتبط بالحياة والهدف، لذلك فهو يغني حبه حياة ولأن حبه للحياة صار محرماً في شريعة اللصوص فتحول هذا الحب الى أناشيد سرية، أن في صوته وريداً للرفض نبض بصداح لا ينتكس ولا يخبو، أن أوجاعه الروحية هي من أوجاع شعبه، فأغنيه تواجه زواجر اللصوص وتتحدى تخمة الكروش، أن حنجرته المؤدية تغني انطلاقة الحياة، حيث ستنبثق ولابد أن تنبثق مرة أخرى طاوية عذاباته وعذابات شعبه المخبوءة والظاهرة، يقول الشيخ إمام في إحدى أغانيه التي كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم وهي ذائعة الصيت:

يا مصر.. يا أمة، يا بهية
الزمن شاب.. وانت شابة
هو رايح.. وأنت جاية
جاية فوق الصعب ماشية
فات عليكي ليل ومية
وامتحانك هو هو
وابتسامتك هي هي
تضحكي للصبح يصبح
بعد ليلة ومغربية
تطلع الشمس تلاقيكي
معجبانية وصبية

رحم الله الشيخ إمام

الشيخ .. غنى أغاني ام كلثوم قبل وصولها اليها!

باسم عبد الحميد حمودي

من قرية أبو النمرس في محافظة الجيزة (حيث ولد في الثاني من تموز ١٩١٨) الى حي الغورية (حيث عاش ومات في السابع من حزيران ١٩٩٥) تمتد رحلة عمر الشيخ أمام محمد أحمد عيسى (وهذا هو اسمه الكامل) ومعظم السبع والسبعين عاما كانت بحثا عن الحرية وسط جو من الالم والحزن والمزيد من الخيبات

قد يكون الشيخ امام قد سعد بلقائه الاول مع احمد فؤاد نجم الذي تم في صيف ١٩٦٢ لانه وجد في شعرنجم ما يناسب حنجرته ووعيه للغناء الجماهيري كفن رسالي، يكتب وينشد من اجل الطبقات المسحوقة من الناس

هذه السعادة المؤقتة التي جمعت الحنجرة الذهبية الخشنة بالشعر سبقتها سنوات من الاحزان .

أول هذه الاحزان فقدانه لبصره وهو في السنة الاولى من عمره وسط رعاية مشفقة من والدته التي فقدت سبعة من الاولاد والبنات قبل أن تحصل على (امام) الذي حاولت حمايته من جور ابيه ومحاولته الدائبة الى صياغة(فقي) مهم في قريته ومجتمعه العام في البندر وفي المحافظة

لم يتجاوز الثانية عشرة عندمادخل في القاهرة وفي الازهر بالذات جمعية شرعية للدراسة ، كا ن ذلك عام ١٩٢٩ .

ثاني الأحزان واشدها مرارة فقدانه لوالدته التي رحلت وهو بعد يدرج متلمسا طريقه بين الاداء القرآني والغناء.التقى به سيد مقرئي عصره ، الشيخ محمد رفعت واعجب بصوته وادائه .في الجمعية كان هناك منشد يحتاج الى كورال فاختير (امام) ضمن جوقة المنشدين ، وقضى أمام ضمن الجوقة اربع سنوات وأتم حفظ القرآن الكريم ولقب بالشيخ لذلك ، لكنه كان مراقبا من افراد الجوقة الانشادية ... كان يعشق اداء الشيخ رفعت للقرآن الكريم وكان يتسلل الى مقهى مجاورة للجمعية التي كان يقيم فيها ليستمع الى اداء الشيخ رفعت عبر المذياع ، وكان سماع الراديو محرّما في الجمعية ،بذلك ارتكب الصبي أمام اثما كبيرا فطرد من الجمعية .

تقطعت السبل بالشيخ امام لكنه كان يقضي نهاره في حي الحسين وليله في اروقة الازهر دون أن يجرؤ على العودة الى (ابو النمرس) خشية غضب ابيه الذي وصلته اخبار ولده فقدم من قريته ليتحقق فوجد ولده هائما في حي الحسين دون ان يتخرج في مدارس الجمعية ويصبح شيخا محترما يفخر به فضربه واهانه وطلب منه الايعود الى قريته ، بذلك ادرك الشيخ ان عليه أن (يلقط رزقه) وحيدا فكان يجول وينشد مع الجوقات هنا وهناك كواحد من (الشواغيل) حتى التقى بافراد من ابناء قريته في حي الغورية فعاش معهم ممتهنا الانشاد حتى التقى الشيخ درويش الحريري الذي تولى تعليمه بعض علوم الموسيقى وصار يصاحبه في جلسات الغناء حيث تعرف من خلالها على كبار المطربين امثال الشيخ زكريا احمد ومحمود صبح .

توطدت علاقته بالشيخ زكريا الذي بدأ بالاعتماد عليه في قضية مهمة بالنسبة له وهي ان يكون أمام (حافظة) لالحانه الجديدة ،اذ بقدر سهو الشيخ زكريا ونسيانه كان (امام) يتمتع بحافظة غريبة ، وكان الشيخ زكريا لايحسن كتابة النوتة ولا حفظ النص فكان امام ذاكرة ممتازه له وكان يستعيد لحنه مرارا من امام ويعدله حتى يستقيم فيقدمه الى السيدة ام كلثوم التي تقوم بالحفظ والاداء المعجز المشهود.

كان الشيخ امام يفخر انه حفظ وادّى ((أهل الهوى)) و((أنا في أنتظارك)) و((الاوله في الغرام)) وسواها من الحان زكريا أحمد التي تتميز بكثرة الانتقالات اللحنية قبل ان تعود الى اللحن الاساس .

شيئا فشيئا بدأ الشيخ امام يغني أغاني أم كلثوم في حفلات خاصة قبل أن تصل اليها أو يتكامل تدريبها على اللحن ، وما أن علم زكرياأحمد بذلك حتى طرد الشيخ امام من خدمته . هكذا خسر امام عملا لكنه اهتم بتعلم العود ليحسّن من شخصيته الفنية فتعلمه على يد كامل الحمصاني ثم بدأ باجراءات نصب في خانة التأليف والتلحين متحولا الى مغن وعازف وارتدى الزي المدني بدلا من زي الشيخ .

اواسط عام ١٩٦٢ حدث اللقاءالتاريخي بينه وبين رفيق دربه احمد فؤاد نجم ليقدما الافضل في الالحان والاداء الشعبي الذي اشتهرا به لسنوات خصوصا ايام النكسة وايام السادات ،وكانت اغان مفجوعة بالذي حصل وكانت العلاقة بين الطرفين ، الشاعر والملحن المنشد قد كلفتهما السجن والتشرد حتى اختلفا في منتصف الثمانينيات وسار الدرب بينهما مختلفا حتى رحل امام وقد ترك اثرا لايمحى في تاريخ الاغنية الجماهيرية.

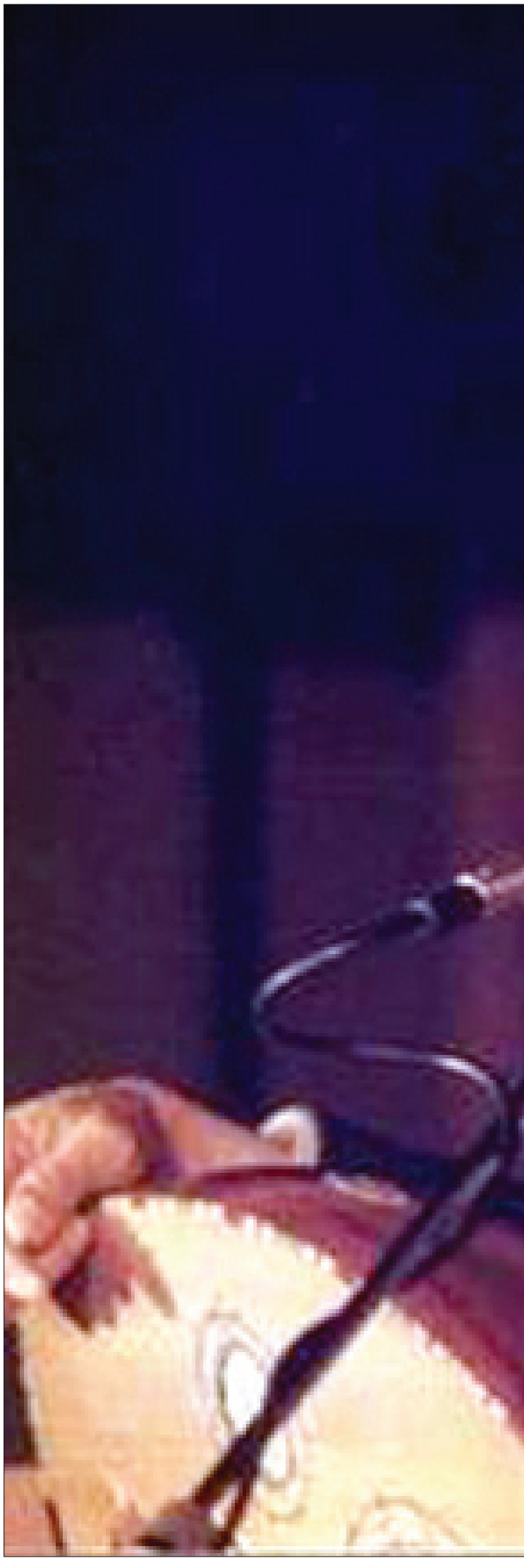

الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم

في عام ١٩٦٢، حدث اللقاء التاريخي بين الشيخ إمام عيسى وأحمد فؤاد نجم رفيق دربه، وتم التعارف بين نجم والشيخ إمام عن طريق زميل لابن عم نجم كان جاراً للشيخ إمام، فعرض على نجم الذهاب للشيخ إمام والتعرف عليه، وبالفعل ذهب نجم للقاء الشيخ إمام وأعجب كلاهما بالآخر.

وعندما سأل نجم إمام لماذا لم يلحن أجابه الشيخ إمام أنه لا يجد كلاما يشجعه، وبدأت الثنائية بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وتأسست شراكة دامت سنوات طويلة.

ذاع صيت الثنائي نجم وإمام والتف حولهما المثقفون والصحفيون خاصة بعد أغنية: «أنا أتوب عن حبك أنا؟»، ثم «عشق الصبايا»، و"ساعة العصاري"، واتسعت الشركة فضمت عازف الإيقاع محمد علي، فكان ثالث ثلاثة كونوا فرقة للتأليف والتلحين والغناء ساهم فيها العديد لم تقتصر على أشعار نجم فغنت لمجموعة من شعراء عصرها أمثال: فؤاد قاعود، ونجيب سرور، و توفيق زياد، وزين العابدين فؤاد، وآدم فتحي، وفرغلي العربي، وغيرهم.

البحر بيضحك ليه

كلمات: أحمد فؤاد نجم

ألحان: الشيخ إمام

البحر بيضحك ليه وانا نازلة اتدلع املا القلل
البحر غضبان ما بيضحكش
أصل الحكاية ما تضحكش
البحر جرحه ما بيدبلش وجرحنا ولا عمره دبل

×××

مساكين بنضحك من البلوة زي الديوك
والروح حلوة
سارقاها من الســكين حموة و لسه جوا القلب أمل

×××

قللنا فـخارها قناوي بتقول حكاوي و غـناوي
يا قلة الذل أنا ناوي ما اشرب و لو في المية عسل

×××

يـاما ملينا وملينا لغيرنا وعطـشنا ساقينا صابرين وبحر ما يروينا شايلين بدال العلة علل

×××

في بالي ياما وعلى بالي واللي بيعشق ما يبالي
ما يهمنيش من عزالي يا حلوة لو مرسالي وصل

×××

ذاع صيت الثنائي نجم وإمام والتف حولهما المثقفون والصحفيون خاصة بعد أغنية: «أنا أتوب عن حبك أنا؟»، ثم «عشق الصبايا»، و«ساعة العصاري»، واتسعت الشركة فضمت عازف الإيقاع محمد علي، فكان ثالث ثلاثة كونوا فرقة للتأليف والتلحين والغناء ساهم فيها العديد لم تقتصر على أشعار نجم فغنت لمجموعة من شعراء عصرها أمثال: فؤاد قاعود، ونجيب سرور، و توفيق زياد، وزين العابدين فؤاد، وآدم فتحي، وفرغلي العربي، وغيرهم.

بيني وبينك سور ورا سور وانا لا مارد ولا عصفور
في إيدي عود قوال وجسور وصبحت انا في العشق مثل

عطشان يا صبايا

كلمات: أحمد فؤاد نجم

ألحان: الشيخ إمام

عطشان يا صبايا وانا عاشق .. ع السبيل
عطشان والميه ف بلدي على عكس ما يجري النيل
والنخل العالي مطاطي والجذع الواطي دليل
والريح العاكس كابس والريح العاطي بخيل
والنسمه اتعكر لونها من هم الناس يا خليل
عطشان والنيل في بلدنا والزرع اخضر وجميل
وانا كنت امبارح خالي واليوم دا صبحت عليل
عطشان ودوايا حبيبي يسقيني العشق دليل
ودليل الحب .. عمايل وكلام الحب قليل
وانا كل ما أقول التوبه تغويني .. المواويل تطرح في القلب جناين تفقس فيها الزغاليل
عشاق يا حمام الغيه ولا فيش قدامنا بديل
سكه ومحسوبه علينا نمشيها جيل ورا جيل
ع الشوك نفرد خطاوينا
في الليل تضوي القناديل
حوالينا قلوب حبابه ومعانا العقل دليل
والشمس تصب صبابه
والمنبع نهر النيل
وان لاموا علينا يلوموا
ما لهمش علينا سبيل
ما هو شوك العشق ملامه
والشوك في الورد أصيل
ودوني ع السبيل
ودوني ع السبيل

اتجمعو العشاق

كلمات: أحمد فؤاد نجم

ألحان: الشيخ إمام

اتجمعوا العشاق في سجن القلعة ...
اتجمعوا العشاق في باب الخلق
و الشمس غنوة من الزنازن طالعة ..
ومصر غنوة مفرعة في الحلق
تجمعوا العشاق بالزنزانة .... مهما يطول السجن مهما القهر
مهما يزيد الفجر بالسجانة .. مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر
.....
تجمعوا و العشق نار في الدم ..... نار

تحرق الجوع و الدموع و الهم
نار تشتعل لما القدم ينضم .... لما الايادي
تفور في لم اللحم
و اللحم متنتور في رملة سينا .... والكدب
بيحجز على أياديناً
قدم العدو غارسة في لحم ترابي ...
والكدب عشش مخبرين على بابي
و المخبرين خارجين كلاب سعرانة ...
بيجمعوا العشاق في الزنزانة
.....
مصر النهار يطلقنا في الميادين .. مصر
البكا .. مصر الغنا و الطين
مصر الشموس الهالة من الزنزانين .. هالة
و طارحة بدمنا بسا تين
مصر الجناين طرحة مين يقطفها .. مصر
الجناين للي يرفع سيفها
مهما يطول السجن مهما القهر .. مهما يزيد
الفجر بالسجانة
مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر
اذا الشمس غرقت
كلمات : أحمد فؤاد نجم
ألحان : الشيخ إمام
إذا الشمس غرقت
في بحر الغمام
ومدت على الدنيا موجة ظلام ومات البصر
في العيون و البصاير
وغاب الطريق
في الخطوط والدوايرً
يا ساير يا داير
يا ابو المفهومية
مفيش لك دليل
غير عيون الكلام

جيفارا مات

كلمات: أحمد فؤاد نجم
ألحان: الشيخ إمام

جيفارا مات
آخر خبر في الراديوهات
وفي الكنايس والجوامع
وفي الحواري والشوارع
وع القهاوي وع البارات
جيفارا مات.. جيفارا مات
واتمدّ حبل الدردشة والتعليقات
مات المناضل المثال
يا ميت خسارة ع الرجال
مات الجدع فوق مدفعه جوّا الغابات
جسّد نضاله بمصرعه ومن سكات
لا طبالين يفرقعوا ولا إعلانات
ما رأيكم دام عزكم يا أنتيكات
يا غرقانين
في المأكولات والملبوسات
يا دفيانين ومولّعين الدفايات
يا محفلطين يا ملمعين
يا جيمسينات
يا بتوع نضال آخر زمن في العوامات
ما رأيكم دام عزكم.. جيفارا مات
لا طنطنة ولا شنشنة
وإعلانات واستعلامات
عيني عليه ساعة القضا
من غير رفاق تودعه
يطلع أنينه يزعق ولا مين يسمعه
يمكن صرخ من الألم
من لسعة النار في الحشا
يمكن ضحك أو ابتسم
أو ارتعش أو انتشى
يمكن لفظ آخر نفس
كلمة وداع لأجل الجياع
يمكن وصية للي حاضنين
القضية في الصراع
صور كثير ملّو الخيال
وألف مليون احتمال
لكن أكيد ولا جدال
جيفارا مات موتة رجال

مصر يامة يا بهية

كلمات: أحمد فؤاد نجم
ألحان: الشيخ إمام

يسبق كلامنا سلامنا يطوف ع السامعين
معنا
عصفور محندق يزقزق كلام موزون و له
معنى
عن الارض سمرا و قمرا
و ضفه و نهر و مراكب
و رفاق مسيرة عسيرة
و صورة حشد
و مواكب
ف عيون صبية بهية
عليها الكلمة و المعنى
×××
مصر يا امّة يا بهية
يام طرحة و جلابية
الزمن شاب و انتي شابة
هو رايح و انتي جاية
جايه فوق الصعب ماشية
فات عليكي ليل و مية (١٠٠)
و احتمالك هو هو
و ابتسامتك هي هي
تضحكي للصبح يصبح
بعد ليلة و مغربية
تطلع الشمس تلاقيكي
معجبانية و صبية
يا بهية
الليل جزاير جزاير
يمد البحر يفنيها
والفجر شعلة ح تعلا
وعمر الموج ما يطويها
والشط باين مداين
عليها الشمس طوافة
ايدك في ايدنا
ساعدنا
دي مهما الموجة تتعافى
بالعزم ساعة جماعة
و بالأنصاف نخطيها
×××
مصر يا امّة يا سفينة
مهما كان البحر عاتي
فلاحينيك ملاحينيك
يزعقوا للريح يواتي
اللي ع الدفة صنايعي
و اللي ع المجداف زناتي
و اللي فوق الصاري كاشف
كل ماضي و كل آتي

عقدتين و التالته تابتة
تركبي الموجة العفية
توصلي بر السلامة
معجبانية و صبية.. يا بهية
×××
و يعود كلامنا في سلامنا يطوف ع
الصحبة حلواني
عصفور محني يغني
على الأفراح ومن تاني
يرمي الغناوي تقاوي
تبوس الأرض
تتحنى
تفرح
و تطرح
و تسرح
و ترجع تاني تتغنى
اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني

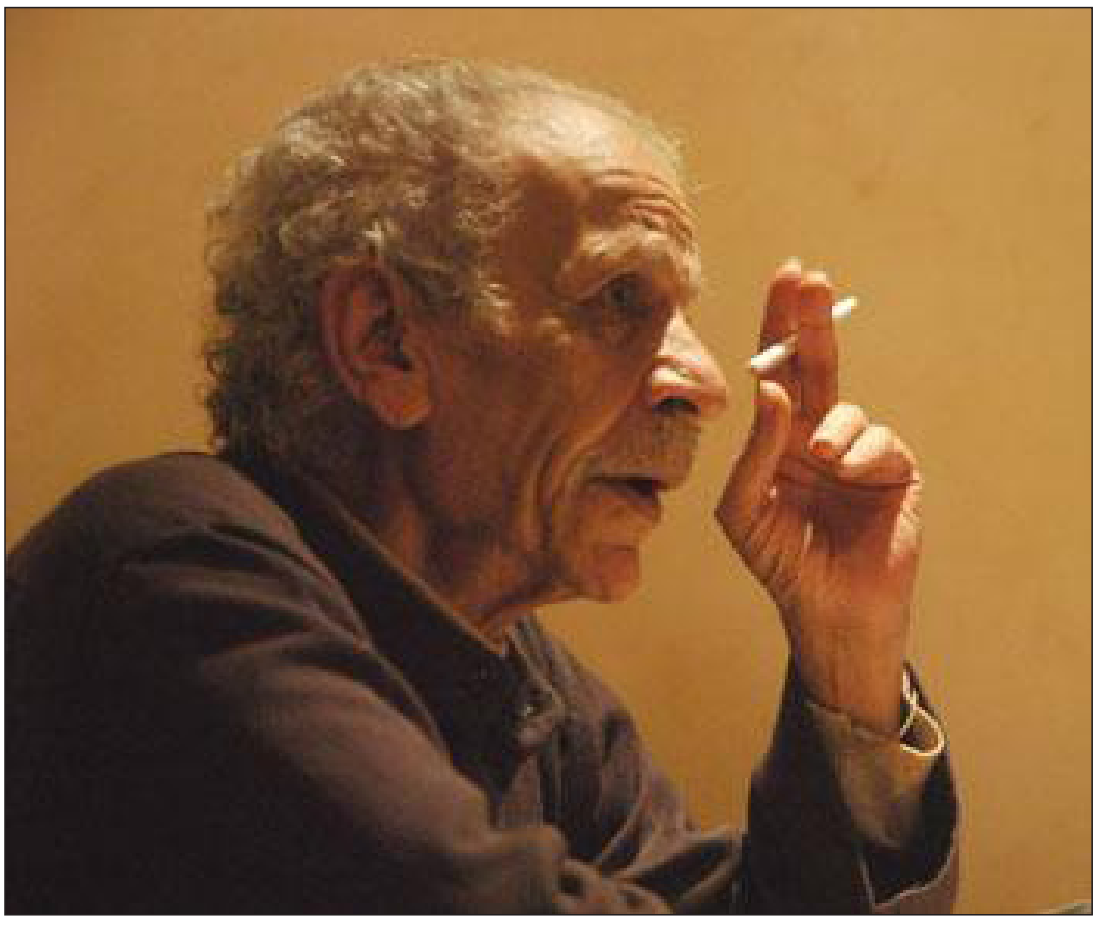

شيّد قصورك

كلمات: أحمد فؤاد نجم
ألحان: الشيخ إمام

شيد قصورك ع المزارع
من كدنا وعمل إيدينا
الخمارات جنب المصانع
والسجن مطرح الجنينة
واطلق كلابك في الشوارع
واقفل زنازينك علينا
وقلّ نومنا في المضاجع
أدي احنا نمنا ما اشتهينا
واتقل علينا بالمواجع
احنا اتوجعنا واكتفينا
وعرفنا مين سبب جراحنا
وعرفنا روحنا والتقينا
عمال وفلاحين وطلبة
دقت ساعتنا وابتدينا
نسلك طريق مالوهش راجع
والنصر قرّب من عنينا
النصر أقرب من إدينا

يا فلسطينية

كلمات: أحمد فؤاد نجم
ألحان: الشيخ إمام

يا فلسطينية و البندقاني رماكو ..
بالصهيونية تقتل حمامكو فِ حماكو
يا فلسطينية و أنا بدي أسافِر حداكو
ناري بإيديا و إيديا تنزل معاكو
على راس الحية و تموت شريعة هولاكو
.....
يا فلسطينية و الغربة طالت كفايا
و الصحرا أنّت من اللاجئين و الضحايا
و الارض حنّت للفلاحين و السقايا
الثورة غاية و النصر أول خطاكو
.....
يا فلسطينية و الثورة هيَّ الاكيدة
بالبندقية نفرض حياتنا الجديدة
و السكة مهما طالت و بانت بعيدة
مد الخطاوي هو اللي يسعف معاكو
.....
يا فلسطينية فيتنام عليكو البشارة
بالنصر طالعة من تحت مية ألف غارة
و الشمعة والعة و الامر كان بالخسارة
راجعين حيارى عقبال ما يحصل حداكو
اتمني ماكونش طولت عليكم في الموضوع
و أتمني منكم تسعو الاغاني و تتعرفو
علي فن الشيخ امام لأنه فعلا يستحق
دا تراث لا يموت أبدا
الله يرحم الشخ امام و يعيد علينا ١٠٠
شيخ امام مثله

مصر البهية .. تستعيد اغاني الاحتجاج والحلم

علي حسن الفواز

ذاكرة الاغنية السياسية ذاكرة احتجاجية بامتياز، وذاكرة حالمة في الآن ذاته، لان هذه الاغنية اذ تختصر الاحتجاج والحلم، فانها تصطنع لهما عبر وظيفة الصوت دورا اكثر ثورية واكثر تلمسا في هوية هذه الاغنية وطبيعة خطابها ورسالتها الى الجمهور المستهدف. واحسب ان ذاكرة الاغنية السياسية العربية قد حملت هذا التوصيف في مراحل متأخرة، بسبب طبيعة المزاج الثقافي/الفني السائد وهيمنة الاغنية التقليدية، وبسبب الظروف الموضوعية التي ترتبط بها انماط الثقافات الاحتجاجية ومرجعيات خطابها السياسي والايديولوجي، اذ ان النمطية التقليدية للغناء السياسي كان محصورا بين الغناء الوطني الحماسي الذي يؤدي دورا يتناسب وطبيعة الاخطار التي تهدد الامة/ الدولة، وبين اغاني المونولوج والتي كان يؤديها مطربون محدودون والذي كان شائعا في العراق ومصر بشكل خاص، لاقترانها بانماط ثقافية/فنية وسياسية معينة، مع وجود العديد من الشعراء وكتاب الزجل الشعبي الذين كانوا يكتبون هذه الاغاني الحاملة لرسائل اجتماعية ونفسية فيها الكثير من مظاهر الاحتجاج والسخرية.

اغاني الشيخ امام ظاهرة صوتية وثقافية استثنائية في تاريخ هذه الاغنية وتحولاتها، اذ ارتبطت هذه الاغاني بخصوصيتها اللحنية الايقاعية المحدودة، فضلا عن اقترانها باتجاهات سياسية معينة، ومحمولات سسيوثقافية تعبر عن العمق الانساني للناس(اللي تحت) كمايسميهم نعمان عاشور، والتي تعبر بالافصاح عن ظروف قاهرة لهؤلاء الناس، مثلما تتطلب الكثير من المواقف التي لاتملك النخب السياسية والثقافية الا الهروب الى فضاءاتها الاحتجاجية. ولااحسب ان الشيخ امام ذا الاصول الازهرية-رغم تمرده عليها في مرحلة لاحقة- يملك القدرة لوحده على ان يحمل هذه المسؤولية الاحتجاجية لوحده دون وجود السياق الثقافي والسياسي الباعث على تفجير مكنوناتها التعبيرية اولا، والتعاطي معها كموقف سياسي او ايديولوجي او حتى نفسي من ظروف قاهرة ثانيا. ولعل اللقاء الذي جمع الشيخ امام مع احمد فؤاد النجم وعازف الايقاع محمد علي يمثل البداية الفنية الحقيقية لصناعة(نسق فني جديد) مقابل صناعة الظاهرة المفارقة في الاثر الاجتماعي لتاريخ الاغنية السياسية العربية، تلك التي لامست وجدان الناس واسئلتهم الفاجعة، وعبّرت عن نبض احزانهم واحتجاجاتهم وسط عالم يمور باحاسيس الخذلان والهزيمة.

الشيخ امام...غناء الاحلام الاولى

الشيخ امام محمد عيسى الازهري في مرجعياته والذي مارس احلامه الاولى شغوفا بسماع صوت الشيخ محمد رفعت مرتلا وباعثا في نفسه بهجة غامضة، ربما هي التي قادته للدرس في الجمعية الشرعية في الازهر، وهي التي قادته في مرحلة لاحقة للتمرد على سلطتها والذهاب باتجاه استعادة احلامه القديمة.

تعرّفه على الشيخ درويش الحريري العارف باصول الغناء والانشاد والمقامات والعزف، هو الذي قاده للتعرف على عوالم الغناء والموسيقى في انشاد الموالد والمشاركة في التخوت الشرقية ومجالاتها الواسعة انذاك، اذ كان الشيخ الحريري قريبا من اساطين الغناء انذاك، ابو العلا محمد، الشيخ زكريا احمد، والشيخ محمود صبح وغيرهم، وهذا ما دفعه لملازمتهم والتتلمذ على ايديهم، خاصة الشيخ زكريا احمد الذي وجد في نبوغه في الحفظ موهبة استثنائية، فكان يرافقه في لياليه الحافلة بالموسيقى، ويحضر اوقاته التلحينية، بمافيها الحانه ل(ام كلثوم) اذ كان يحفظ جميع هذه الالحان ويرددها كثيرا في المناسبات. ولاشك ان تأثير هذه النزعة اللحنية بمقاماتها المعروفة ذات النزعة التطريبية كان كبيرا على حساسيته الغنائية، وعلى تطوير قابليته التي اخذت تتفجر دون ضابط او توجيه، خاصة وانه كان يختزن في ذاته المتأججة صراعا غريبا بين نزعته للتجديد، وبين نمطية ثقافته الدينية والاجتماعية المحافظة، والذي انعكس على شخصيته العائمة والقلقة وسط فضاءات الموسيقى العربية التي بدت مفتوحة على انماط تجديدية في التطريب والغناء والموسيقى، وعلى ايدي موسيقيين كبار امثال محمد عبد الوهاب ورياض القصبجي ومحمد الموجي وبليغ حمدي وغيرهم.

الشيخ وصدمة الاكتشاف

الشيخ الحالم بسحر الغناء وجمالية اصواته الباذخة ظل مهووسا باغواء تلك الاحلام التي تطارده في رحلاته القاسية وعند شظف عيشه الذي يعانيه، فهو لم يجد ما يهب روحه اللجوجة والقلقة اطمئنانها، حتى بدا وكأن هذا القلق هو سر ابداعه الغريب الذي قاده للتعرّف على الشاعر احمد فؤاد النجم عام ١٩٦٢، ليشكلا معا ظاهرة غنائية(صوتية وشعرية)لامست وجع الملايين في مصر والبلدان العربية، اذ استشرفت اغانيهم روح التمرد والاحتجاج العميقة السكنى في الذات العربية المكشوفة على فوبيا الخيبات والاغترابات والمراثي. وليعيشا يوميات الانشداد الى فخاخ الاحلام العربية التواقة للحرية والكرامة، خاصة ايام حكم جمال عبد الناصر الذي كان مثالا للنموذج التقليدي لصورة البطل القومي الذي تنعكس كارزما شخصيته على الجموع التي تبدو منفعلة بسحر هذه البطولة. انهيار هذا النموذج مابعد هزيمة

١٩٦٧ وماأحدثه من زلزال كبير في كينونة هذه الشخصية، تبدى وكأنه اكثر الصدمات التي هزت يوميات الحياة العربية سياسيا وثقافيا واجتماعيا، خاصة ما انعكس منها بعد انهيار سايكولوجيا البطولة التاريخية التي كانت تمثلها اوهام(البطل القومي)، وبدء مرحلة مراثي موت هذا البطل بكل ما يشوبها من روح غامرة بالمرارة والسخرية. مثلما كان من اكثر التحولات العاصفة في حياة الشيخ امام واحمد فؤاد النجم، فهما خرجا بيافطة القصيدة والغناء للاحتجاج العلني على الهزيمة، لانها ليست هزيمة عسكرية بالمعنى المهني، بقدر ماهي هزيمة تاريخية ونفسية وثقافية، والتي انخرط في غمارها الشيخ امام صوتا عاليا مليئا بالوجع والسخرية، فضلا عن تمثله للكثير من احلام البسطاء الذين كانوا قد وضعوا ثقتهم برمزية(ابطالهم السياسيين والعسكريين) والذين خيبوا هذه الاحلام وتركوهم مكشوفين لمشاعر الهزيمة النفسية المرعبة،

الحمد لله خبطنا بطاطنا
يامحله رجعة ضباطنا من خط النار
يعيش اهل بلدي وبينهم مفيش
تعارف يخلي التحالف يعيش
وقعت من الجوع ومن الراحة
البقرة السمرا النطاحة

كلمات هذه الاغنية التي كتبها احمد فؤاد النجم وغنّاها الشيخ امام تعكس مرارة الاحساس بالهزيمة، وخذلان الرمز، وسخرية الانسان من هذا الوجع الوطني الذي تحول الى انهيار اصاب البلاد والعباد. مثلما تحمل نبوءة كشف لمراحل لاحقة شاعت فيها مظاهر الفساد السياسي والاقتصادي والتي عبرّت عن طبيعة اختلال التوازن في المعيش، وعن ازمة الحياة المصرية انسانيا ومعيشيا التي تعاني هيمنة(القطط السمان)كماتسميها ادبيات المعارضة المصرية، والتي تكررت صورها اللاذعة في اغنيته المشهورة(اهل مصر المحمية)

ياأهل مصر المحمية
بالحرامية
الفول كثير والطعمية
والبر عمار
والقشة معدن واهي ماشيه
اخر اشيا
مادام حبابة والحاشية
بكروش اكثار.

هذه القصيدة التي غناها الشيخ امام وغيرها من القصائد الاخرى امثال(ياعرب، نيكسون، كلب الست، احنا مين، دور ياكلام، بوتيكات، انا ديكم، ياخواجة ويكا، بقرة حاحا وغيرها) اعطت لظاهرة الشيخ امام واحمد فؤاد النجم حضورا اكثر تحديا واشهارا في مواجهة العديد من الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي بدأت تقترن بهموم الناس(الغلابة) الذين يبحثون عن عالم اكثر أمنا واشباعا، مثلما يبحثون عن وجه مصر الاخر، الوجه الذي عاشوا لياليه مع رومانسيات الغناء الاصيل، وتاريخ السينما المصرية، خاصة في مرحلتها الواقعية والرومانسية ونماذج ابطالها المعروفين، وطراوة الغناء البليل الذي كرس رومانسيته الثانية اجيال جديدة من المطربين بدءا من عبدالحليم حافظ ومحمد قنديل وكارم محمود وماهر العطار ومحرم فؤاد ونجاة الصغيرة وغيرهم، والتي وضعت هذا الثنائي امام مرحلة جديدة تجاوزا فيها الاحتجاج السلبي الى نوع من الوعي الجديد لمواجهة الروح الانهزامية واظهار المشاعر الوطنية البسيطة.

××الاغنية الملتزمة××

تقترن ملامح هذه الاغنية الجديدة(الاغنية الملتزمة) مع بروز ظاهرة الوعي الاجتماعي بضرورة الالتزام بمعناه الاخلاقي ومعناه السياسي وحتى بمعناه الايديولوجي، والذي وضع دور الثنائي الشيخ امام واحمد فؤاد النجم امام توصيف اخر انطلق من طبيعة التغيير الذي استدعى النظر الى المغايرة في توصيف مواقف النخبة الثقافية ازاء مسؤولياتها في مواجهة ازمات السلطة واستبدادها السياسي والامني وخنقها للحريات، وازمة استشراء مظاهر الفساد بكل مستوياته، مقابل استشراء مظاهر الفقر والحرمان والعشوائيات في المدن المصرية، فضلا عن استشراء مشاعر الاحباط واليأس، والتي باتت تستدعي رؤية اخرى تنطلق من وعي المواجهة، والتصدي لاستحقاقاتها الثقافية والسياسية، والعمل على توظيف الاغنية السياسية الملتزمة في اثراء الخطاب الثقافي، خاصة وان تاريخ الاغنية المصرية هو جزء من تاريخ المجتمع المصري وتحولاته الاجتماعية والسياسية، وكان شاهدا على الكثير من ظواهرها السياسية بدءا من عبده الحمولي وسيد درويش وصولا الى ظاهرة الشيخ امام.

اغنية(مصر يامه يابهية)كانت النموذج الواعي الذي تجسدت فيه هذه النقلة الاسلوبية والتطريبة، وكذلك تجليات المعنى الثقافي والانساني للاغنية السياسية الملتزمة، والتي اثارت جدلا حول دورها في التعبير عن رؤى ومعطيات جديدة، وعن مواقف اكثر جدّة تضع المثقف المصري في صلب الحراك والنضال الاجتماعي والسياسي، وتضع رؤيته لمفهوم الاحتجاج الاجتماعي في سياق تتفاعل فيه الرؤى السياسية مع المنظور الايديولوجي خاصة ماكان يطرحه اليسار المصري من شعارات، والذي وجد في اغنية الشيخ امام شفرات فاعلة للتعبير عن الكثير من اليافطات العالية التي تعبر عن الطموح بحياة حرة كريمة، مثلما تعبر عن المواقف والافكار وقيم الايمان بالحياة والوجود والهوية.

مصر يامة يابهية
يام طرحة وجلابية
الزمن شاب وانت شابة
هو رايح وانت جاية

هذا التحول في المواقف وفي توظيف الاغنية السياسية جعل الشيخ امام يخضع الى رقابة السلطة الامنية واستجواباتها الكثيرة، اذ منع من الغناء في الاذاعة والتلفزيون، بتهمة ان اغانيه السياسية ذات توجهات معينة، وانها تهاجم المسؤولين في السلطة المصرية، لذا زجّ به بالسجن عام ١٩٦٩ واعتبر الشيخ امام اول سجين سياسي بتهمة الغناء المناوىء للسلطة.

سجن الشيخ امام اثار الكثير من الاحتجاج، ووضع ظاهرته الغنائية في سياق اكثر اثارة لطبيعة التحولات التي تعيش تعقيداتها النخبة المصرية قبل حرب اكتوبر عام ١٩٧٠، اذ ان هذه التحولات التي شملت الاغنية والسينما والتشكيل والشعر والسرديات، انعكست ايضا على كشف مساوىء السلطة التي بدت عاجزة عن مواجهة سلسلة من الازمات الداخلية والخارجية، واحسب ان اغنية(جيفارا) تعبر عن اشكالية هذا الوعي المفارق، لانها تتحدث عن الموت من زاوية اخرى، الموت الذي يمثل حياة خالدة لصاحبه دونما ضجيج، مقارنة بظاهرة الموت السياسي العربي الذي لايعدو ان يكون الاّ ضجيجا وصخبا، وكأنه يوظف الموت الفيزيقي لتغطية الموت القيمي والاخلاقي والسياسي، وجيفارا في هذا السياق بطل انساني اخلاقي يدافع عن حق الشعوب بالحرية وقد قتلته الامبريالية في احراش بوليفيا.

جيفارا مات
اخر خبر في الراديو هات
في الكنائس في الجوامع
في الحواري في الشوارع
جيفارا مات
لاطنطنة
ولاشنشنة
ولا اعلانات
جيفارا مات..

التغيرات العاصفة في تجربة الشيخ امام الغنائية، تحولت الى تغايرات قارّة انعكست على ظاهرة الاغنية العربية، اذا اضحت ظاهرة شعبية وسياسية بالمعنى الانساني لهذه الظاهرة، وخضعت في هذا السياق الى منظور تجاوز حساسية التعريف الفني الخالص، باتجاه تعريف يضع الاغنية كفعالية اجتماعية في عمق ماتؤديه من دور انساني مؤثر، واحسب ان هذا الدور هو الذي اسبغ على وظيفتها نزوعا اخر، جعلها اشبه ماتكون بظاهرة الغناء السري الاحتجاجي المناهض للسلطة ورمزياتها، والتي فتحت امامها افاق واسعة مثيرة وصادمة، اذ منحته نجومية لايطمئن اليها وهو الضرير المهووس بفكرة(الحياة الخالصة)، مثلما عرضت علاقته مع رفيق دربه احمد فؤاد النجم الى الانفصال الفني والانساني، والتي استدعت الشيخ امام ليغني قصائد شعراء اخرين امثال نجيب سرور، وتوفيق زياد، زين العابدين فؤاد، وادم فتحي وغيرهم) والتي لم تخرجه عن السياق الاسلوبي اللحني الاّ انها فقدت الكثير من نبضها الشعبي العميق الذي اقترن بروح النجم الواعية بشعبيتها واستغواراتها السرية لمكنونات الانسان المصري البسيط.

الشيخ الامام الحاضر في الذاكرة تستعيده اليوميات المصرية الان وهي تعيش ازمة وجودها المضطرب الذي يواجه صراعات كينونية محتدمة، وحرائق مكشوفة على ازمة السياسة والوجود، مقابل ازمات اكثر قسوة للانسان والهوية والمكان، والتي تجعل الاغنية كصوت عال تعبيرا عن قوة احتجاجات ذلك الانسان المصري الحالم بالحرية والكرامة والخبز، والذي خرج الى الشارع مجددا محتجا حالما باحثا عن زمن وطني اخر، واحسب ان هذه الصوت هو الذي يبحث في زوايا الذاكرة عن ايقاعات الشيخ امام التي طالما صدحت لمصر(الام البهية) بكل اغانيها التي لاتشيخ رغم كل السنوات العجاف، والتي تفتح ايقاع الاحتجاج القديم على استعادة قوة الحياة والجمال والامل..

التغيرات العاصفة في تجربة الشيخ امام الغنائية، تحولت الى تغايرات قارّة انعكست على ظاهرة الاغنية العربية، اذا اضحت ظاهرة شعبية وسياسية بالمعنى الانساني لهذه الظاهرة، وخضعت في هذا السياق الى منظور تجاوز حساسية التعريف الفني الخالص، باتجاه تعريف يضع الاغنية كفعالية اجتماعية في عمق ماتؤديه من دور انساني مؤثر، واحسب ان هذا الدور هو الذي اسبغ على وظيفتها نزوعا اخر، جعلها اشبه ماتكون بظاهرة الغناء السري الاحتجاجي المناهض للسلطة ورمزياتها،

اول من سجن بسبب الغناء

الشيخ امام رصاصة في صدر الطغاة

محمد شفيق

يبقى الفنان أي فنان، عاش معاناة الشعب، وتشرب بها ، حياً في الذاكرة لا يمحوه الزمن مهما تقادم عليه. وهذه حقيقة معروفة لا تحتاج الى طرح وجمع، كون الفنان جزء من الشعب الذي تربى بينه، وكان السبب فيما وصل اليه. فالفن ليس الحب لوحده، وانما الماء والخبز والحياة بكاملها، وملامسة كل هذا هو الذي يجعل الفنان فنان الشعب وليس فن الفنادق او الملاهي، وكلنا نتذكر الفنانة العالمية الراحلة (ميريام كيبا) وكيف سخرت فنها لخدمة شعبها وافريقيا، ولم تحاول ان تخرج عن هذا الطريق الذي اختطته لنفسها، حتى سميت مطربة الشعب.

وفي العراق ظهر عندنا الفنان عزيز علي، واستطاع ان يقف مع الشعب في سرائه وضرائه، وان يؤكد على معاناته مع الحكام، وتشخيصه لذلك. وبسبب من هذا بقي حياً يرزق في الذاكرة ليومنا هذا، مستخدماً ابسط الكلمات وافهمها وكذلك بالحان بسيطة لايصالها الى ابسط شريحة في المجتمع . وباتت تردد من قبل الجميع وجعل الحكام مسخرة مما اضطرهم الى استدعائه لمرات عديدة. وسمي ايضاً بفنان الشعب. وفي مصر كان الشيخ امام والذي هو محمد احمد عيسى الذي كان. والده يحلم أن يكون ابنه شيخاً كبيراً، لكنه كان قاسياً في معاملته، أما والدته فكانت النبع الذي ارتوى منه إمام بالحنان في طفولته وعوضه فقد بصره، وكانت معايرة الأطفال لابنها بالعمى تدفعها للبكاء. كان إمام يندس في مواسم الأفراح والحج، وسط الحريم ليسمع غناءهن وأهازيجهن فنشأ صاحب أذن موسيقيه. ومما جعل منه مهماً هو نزوله الى الدرجات السفلى من المجتمع المصري ومن اغانيه المهمة التي تردد «ناح النواح والنواحا حاحا على بقرة حاحا النطاحا حاحا».

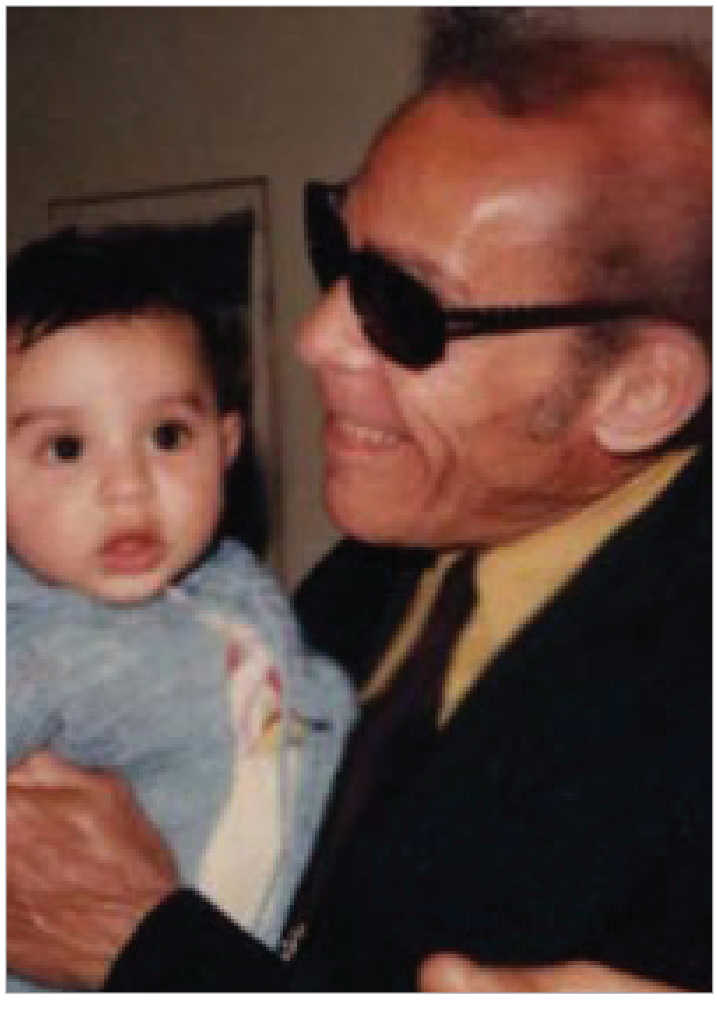

وبعد حرب الـ (١٩٦٧) غنى اغنيات خاصة بالحرب وفي احدى اغانيه يسخر من الرئيس الامريكي نيكسون اذ يقول « شرفت يا نيكسون بابا.. وكان يزور وقتها القاهرة.. وعد هذا تحولاً تاريخياً لهما.

وفى عام ١٩٢٩، لم يكن إمام قد أكمل عامه الثاني عشر،عندما اصطحبه والده للقاهرة للدراسة بالجمعية الشرعية بحي الأزهر، وكان لدى الجمعية واعظ ومنشد يحيي المناسبات، وفى أحد الأفراح اختير الطفل إمام ضمن فرقة الإنشاد. التحق الشيخ إمام بالمركز الرئيسي للجمعية، وقضى فيها ٤ سنوات وأتم حفظ القرآن الكريم، فاستحق لقب «شيخ» رغم صغر سنه، وكان يقيم بها إقامة دائمة.

ولازم إمام الشيخ محمد رفعت لصوته المتميز ولكون رفعت قد مدحه ومدح نباهته يوماً، وكان الاستماع للإذاعة من ممنوعات الجمعية لكونه بدعة، مع أنه كان يستمع للقرآن، إلا أن الجمعية قررت فصله بالإجماع. عندما سمع أبوه بما حدث لابنه من فصل من الجمعية بحث عنه فوجده يقضى نهاره في الحسين وليله في الأزهر حيث كان ينام، فأهانه وضربه وحذره من العودة لقريته مرة أخرى نظراً للجريمة التي اقترفها بتسببه في فصله من الجمعية، وبعدها مباشرة توفيت أمه التي كانت أعز ما لديه في الدنيا، ولم يتمكن من تشييعها لمثواها الأخير، وبالفعل لم يعد لقريته إلا حين مات أبوه.

وفى إحدى زياراته لحى الغورية قابل مجموعة من أهالي قريته فأقام معهم وامتهن الإنشاد وتلاوة القرآن الكريم، وكسائر أحداث حياته التي شكلتها المصادفة التقى الشيخ إمام بالشيخ درويش الحريري أحد كبار علماء الموسيقى، وأعجب به الشيخ الحريري بمجرد سماع صوته، وتولى تعليمه الموسيقى.

اصطحب الشيخ الحريري تلميذه في جلسات الإنشاد والطرب، فذاع صيته وتعرف على كبار المطربين والمقرئين، أمثال زكريا أحمد والشيخ محمود صبح، وبدأت حياة الشيخ في التحسن.

وبعد ان كانت ألحان زكريا أحمد لأم كلثوم بدأت تتسرب للناس قبل أن تغنيها أم كلثوم، مثل «أهل الهوى» و«أنا في انتظارك» و«آه من لقاك في أول يوم» و«الأولة في الغرام»، فقرر الشيخ زكريا الاستغناء عن الشيخ إمام.

كان لهذه الواقعة أثر في تحويل دفة حياة الشيخ إمام مرة أخرى عندما قرر تعلم العزف على العود، وبالفعل تعلم على يد كامل الحمصاني، وبدأ الشيخ إمام يفكر في التلحين حتى إنه ألف كلمات ولحنها وبدأ يبتعد عن قراءة القرآن وتحول لمغن واستبدل ملابسه الأزهرية بملابس مدنية.

وبدأت الثنائية بين الشيخ امام واحمد فؤاد نجم إذ تعارفا واعجب احدهما بالآخر وكان ذلك عام ١٩٦٢ حتى سماه البعض باللقاء التاريخي.

وعندما سأل نجم إمام لماذا لم يلحن أجابه الشيخ إمام أنه لا يجد كلاما يشجعه، وبدأت الثنائية بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وتأسست شراكة دامت سنوات طويلة.

انتشرت قصائد احمد فؤاد نجم التي لحنها وغناها الشيخ إمام داخل وخارج

بدأت الثنائية بين الشيخ امام واحمد فؤاد نجم إذ تعارفا واعجب احدهما بالآخر وكان ذلك عام ١٩٦٢ حتى سماه البعض باللقاء التاريخي. وعندما سأل نجم إمام لماذا لم يلحن أجابه الشيخ إمام أنه لا يجد كلاما يشجعه، وبدأت الثنائية بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وتأسست شراكة دامت سنوات طويلة. ذاع صيت الثنائي نجم وإمام والتف حولهما المثقفون والصحفيون خاصة بعد أغنية: «أنا أتوب عن حبك أنا؟»، ثم «عشق الصبايا»، و«ساعة العصاري»، واتسعت الشركة فضمت عازف الإيقاع محمد علي، فكان ثالث ثلاثة كونوا فرقة للتأليف والتلحين والغناء ساهم فيها العديد لم تقتصر على أشعار نجم فغنت لمجموعة من شعراء عصرها أمثال: فؤاد قاعود، ونجيب سرور، وتوفيق زياد، وزين العابدين فؤاد، وآدم فتحي، وفرغلي العربي، وغيرهم.

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

فخري كريم

التحرير
نزار عبد الستار
التصميم
مصطفى جعفر
التصحيح اللغوي
محمود شاكر

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

مصر، فكثر عنها الكلام واختلف حولها الناس بين مؤيدين ومعارضين، في البداية استوعبت الدولة الشيخ وفرقته وسمحت بتنظيم حفل في نقابة الصحفيين وفتحت لهم أبواب الإذاعة والتليفزيون.

لكن سرعان ما انقلب الحال بعد هجوم الشيخ إمام في أغانيه على الأحكام التي ادان المسؤولون عن هزيمة ١٩٦٧، فتم القبض عليه هو ونجم ليحاكما بتهمة تعاطي الحشيش سنة ١٩٦٩ ولكن القاضي أطلق سراحهما، لكن الأمن ظل يلاحقهما ويسجل أغانيهم حتى حكم عليهما بالسجن المؤبد ليكون الشيخ أول سجين بسبب الغناء في تاريخ الثقافة العربية.

قضى الشيخ إمام ونجم الفترة من الهزيمة حتى نصر أكتوبر يتنقلان من سجن إلى آخر ومن معتقل إلى آخر ومن قضية إلى أخرى، حتى أفرج عنهما بعد اغتيال الرئيس السادات.

في منتصف الثمانينيات تلقى الشيخ إمام دعوة من وزارة الثقافة الفرنسية لإحياء بعض الحفلات في فرنسا، فلاقت حفلاته إقبالاً جماهيرياً كبيراً، وبدأ بجولة اخرى في الدول العربية والأوروبية لإقامة حفلات غنائية لاقت كلها نجاحات عظيمة، وللأسف بدأت الخلافات في هذه الفترة تدب بين ثلاثى الفرقة الشيخ إمام ونجم ومحمد على عازف الإيقاع لم تنته إلا قبل وفاة الشيخ إمام بفترة قصيرة.

وتوفى الشيخ إمام في عام ١٩٩٥ تجاوز السبعين من عمره في حجرته المتواضعة بحي الغورية ولم يعد يظهر في الكثير من المناسبات كالسابق حتى توفي في هدوء في ١٩ حزيران ١٩٩٥ تاركاً وراءه أعمالاً فنية نادرة.

ما احوج اليوم الشعب المصري الى شيخ امام في الوقت الحاضر! ان كلماته هي اقوى من رصاص الحكام ودكتاتوريتهم وتسلطهم على الشعوب.

من أغانيه

له أغنية هي الأشهر في نكسة حزيران / يونيو وهي (الحمد للّه):

الحمد للّه خبطنا
تحت بطاطنا
يا محلا رجعه ضباطنا
من خط النار
يا اهل مصر المحميه
بالحراميه
الفول كتير والطعميه
والبر عمار
والعيشه معدن واهي ماشيه
اخر اشيا
مادام جنابه والحاشيه
بكروش وكتار
ح تقول لى سينا وما سينا شي
ما تدوشناشي
ما ستميت اوتوبيس ماشى
شاحنين انفار
ايه يعني لما يموت مليون
او كل الكون
العمر اصلا م
ش مضمون
والناس اعمار
الحمدللّه وأهي
ظاطت
والبيه حاطط
في كل حته
مدير ضابط
وإن شاللّه
حمار
ايه يعني في العقبه جرينا
ولا ف سينا
هى الهزيمه تنسينا
اننا احرار
ايه يعني شعب ف ليل ذلة
ضايع كله
دا كفاية بس اما تقول له
احنا الثوار
الحمد اللّه ولا حولا
مصر الدوله
غرقانة في الكدب علاوله
والشعب احتار
وكفايه اسيادنا البعدا
عايشين سعدا
بفضل ناس تملا المعده
وتقول اشعار
اشعار تمجد وتماين
حتى الخاين
وان شا اللّه يخربها مداين
عبد الجبار